واحد «لانهم أناس لا يمكن الاعتماد عليهم كثيرا». وإذا كان بين هؤلاء الناس أرقاء فإن السيد مالك الرقيق هو الذي يأخذ أسهمهم ، وأحيانا يعطى . جزءا للرقيق. (أنظر الأب دان ص 265 ـ 266) ، ويتفق هذا التقسيم الذي جاء به مع ما أورده الكتاب الآخرون تقريبا. أنظر أيضا البير ديفوكس (سجل غنائم البحرية) في المجلة الافريقية عدد 15، ص 70ـ77 وعدد 16 ، ص 146ـ159.

(8) ولكنهم لم يكونوا دائما حكماء في ذلك. فقد كتب القنصل الانكليزي مارتن في نوفمبر 1675. بأن ولد الداي قد رقي الى رتبة أمير البحر (أميرال) وأعطي قيادة سفينة جديدة . اسمها «الحصان الذهبي». ولما خرج في غزوته رفقة خمسة آخرين من البحارة ـ القرصان مع سفنهم) التقى برجل حرب برتغالي وضيق عليه الخناق طلبا للحرب. وقد استطاع البرتغالي أن يفر من الأسر ولكن خلال المعركة قتل حوالي أربعمائة رجل من الأتراك والجزائريين وسبب أضرار كبيرة للسفن ولذلك عزل ولد الداي من منصبه وسمي مكانه الرايس كناري (Canary) برتبة أمير البحر أنظر : Pro. sp. 71-1 Fol. 89.

(9) كانت سالا «جمهورية قرصنة» تقع على الساحل المراكشي. كانت تحكم من قبل جماعة من أربعة عشر قبطانا، ولها رئيس برتبة أمير البحر (أميرال). وكانت الجماعة فيها مؤلفة من رجال البحر البولانديين والانكليز فقط تقريبا. وكانت سفنها عاملة في كل البحر الأبيض وشمال المحيط الأطلسي خلال كل القرن السابع عشر وجزء من الثامن عشر. أنظر انطونيو دي أرماس De Armas (القراصنة والهجومات) الجزء الثالث. ص 1 وص 59 وغيرها. وهناك كتابات أخرى عن جماعة سالا، وكثير من المراجع المعاصرة عن أنشطتها.

(10) لقد رأينا أن كثيرا من الرياس ومساعديهم كانوا من الأعلاج . وأن مصيرهم كان مظلما اذا ما ألقي القبض عليهم. ففي البحر كانوا عادة يشاركون مصير العلج الانكليزي قائد البسفينة المسماة (هافمون: نصف القمر = قمر 14) التي أسرتها السفينة الانكليزية (سفير) : الياقوتة الزرقاء في صيف 1681. فقد كان قد شنق على الفور (أنظر كلاوز Clowes ، البحرية الملكية ج 2 ص 457) وكانت محاكم التفتيش في كل من ايطاليا واسبانيا تحرق الأعلاج حرقا. ولا تستطيع أي معاهدة أن توقف هذا لأنها «لا تطيع الملك. ولا يمكن لحدوده أن تتقيد.... بمعاهدة» (أنظر مارسيل ايمريت M. Emirit : تجارة بحرية شمال افريقية في القرن الثامن عشر في الكراسات التونسية ـ رقم 3 ص 364) فلا غرابة اذن أن الرياس الأعلاج كانوا لا يرغبون في أن يصبحوا ضباطا لسفن تجارية قد ترسو بهم في ميناء أروبي.

(11) A. N. K., 1334, No. 6

(12) كانت هذه السفينة «هدية» من جمهورية الولايات المتحدة الشابة.

ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين

عمر بن خروف

شهد المغرب الأقصى في مطلع القرن 10 هـ/16 م قيام أسرة حاكمة جديدة فيه، ألا وهي أسرة الاشراف السعديين، التي استمرت في الحكم حتى سنة 1659 [1] وقد كان المغرب عند قيام هذا الأسرة يعيش في أزمة سياسية واقتصادية ؛ حيث كان مجزأ الى وحدات سياسية صغيرة متناحرة [2] ، كل واحدة عاجزة عن توحيد كل أجزائه تحت سلطتها، وعن مقاومة الغزو الخارجي البرتغالي والاسباني الذي استهدف المغرب، واستفحل في النصف الثاني من القرن 9 هـ/15 م ومطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، مستغلا التجزؤ والانقسام والتفتت الذي آل اليه المغرب. وهكذا احتل البرتغاليون معظم المدن الواقعة على الساحل الأطلسي، وعلى مضيق جبل طارق [3]، بينما احتل الاسبان مليلة. وحجر بادس، وغساسة على الساحل المتوسطي [4] ، بحيث لم يبق بيد المغاربة من المنافذ البحرية المفتوحة على الخارج سوى سلا على المحيط الأطلسي وتطوان على البحر المتوسط. وأخذ البرتغاليون والاسبان يشنون حملات متوالية على المناطق الداخلية المجاورة لقواعدهم ، ويتوغلون أحيانا الى أعماق بعيدة قد تصل الى مئة كلم، وهم ينهبون، ويسلبون، ويقتلون ويأسرون، حتى أقفرت أو كادت تقفر كل المناطق التي تقع على مقربة من القواعد البرتغالية والاسبانية الا من بعض عملائهم، واضطربت أحوال

المغرب غاية الاضطراب[4]، فتعطلت الزراعة فيه وهجر الفلاحون حقولهم الى مناطق أكثر أمنا ولو كانت جبلية[5]. كما تعطلت التجارة بين المناطق، حيث أصبح الأمن غير متوفر في الطرق والأسواق، لا تكاد تنجو قافلة من الاعتداء عليها إما من البرتغاليين أو الاسبان أو الاعراب[6]، وتدهورت تجارة المغرب الخارجية مع أوروبا، حيث فرض البرتغاليون والاسبان حظرا على الاتجار مع المغرب على الأوروبيين خشية أن يورد له هؤلاء الأسلحة التي كان في حاجة اليها[7]، ونافسوا المغرب في تجارته مع بلاد السودان[8]، ومالت محاور التجارة مع هذه الأخيرة نحو الجزائر وتونس[9]. وتلقت الصناعة المغربية التي كانت ما تزال في الطور الحرفي، ضربة قوية؛ حيث كانت تتركز في المدن الساحلية التي أصيبت باحتلال البرتغاليين والاسبان، وفي المدن الداخلية التي تأثرت بتهديدهم أو غزوهم لها كمراكش التي كادت تصبح خرابا يبابا.

وهكذا يمكن القول بأن المغرب عشية قيام حكم السعديين فيه، كان يتخبط في أزمة اقتصادية حادة للغاية إلى جانب أزمته السياسية. وفي هذا البحث محاولة للوقوف على جهود السعديين للخروج بالمغرب من محنته وبعث الانتعاش في حياته الاقتصادية. وعلى ما أدخلوه من تطوير في مختلف الأنشطة الاقتصادية.

على أنه يمكن منذ البداية التمييز بين فترتين في عهد السعديين. الأولى تبدأ من سنة 1509 تاريخ المبايعة الأولى للسعديين. وتمتد الى سنة 1603 تاريخ وفاة السلطان أحمد المنصور. والثانية تبدأ من وفاة هذا الأخير وتمتد الى سقوط آخر السلاطين السعديين في مراكش في 1569. حيث كان السلاطين السعديون في الفترة الأولى من البناة العظماء للاقتصاد المغربي كما يتبين ذلك لمن يستعرض جهودهم في حين كان خلفاؤهم في الفترة الثانية ضعافا لا يكاد يذكر لهم فضل أو جهد بل عجزوا حتى عن المحافظة على ما شيده آباؤهم وأجدادهم من الأسس والقواعد الاقتصادية التي أنعشت الحياة الاقتصادية في المغرب بعد أن كادت تختنق.
ولو أن هذا الإنعاش الذي شهده المغرب في الفترة الأولى من عهد السعديين كان بطيئا. اذ استمرت الحياة الاقتصادية عدة عقود أخرى بعد سنة 1509. على أحوالها السالفة الذكر. لأن المغرب شهد خلالها:

1 ـ استمرار البرتغاليين في غزو المغرب. ومحاولة احتلال مواقع جديدة في الجنوب والوسط والشمال، في الساحل والداخل. فنجحوا في احتلال آزمور سنة 1513، وآغوز سنة 1519، الساحليتين على الأطلسي، بينما باءت محاولة احتلالهم لمراكش الداخلية، والمعمورة الساحلية في سنة 1515. وقاموا بمحاولات نهب وسلب وقتل في المناطق المجاورة لمراكزهم وحتى البعيدة عنها، بمساعدة بعض عملائهم من المغاربة، أمثال يحيى بن تعفوفت وغيره[10].

2 ـ مجاعة رهيبة في سنة 1521، لم يشهد المغرب مثيلا لها خلال القرن 10 هـ/16 م، حتى أن سكان عبدة بدوكالة كانوا يبيعون أنفسهم وأولادهم للبرتغاليين لقاء لقمة العيش. وقد ظل الناس فترة من الزمن يؤرخون بهذه المجاعة[11].

3 ـ استمرار المغرب مجزأ حتى أواسط القرن 10 هـ/16 م الى وحدات سياسية عديدة متنافسة.

ولكن الحياة الاقتصادية في المغرب أخذت في الانتعاش، لان السعديين الذين انطلقوا من جنوب المغرب تمكنوا شيئا فشيئا من توفير أهم الشروط الضرورية للارتقاء بها هناك ثم في كل المغرب، حين أتموا توحيده في منتصف القرن 10 هـ/16 م. وفي مقدمة تلك الشروط:

1 ـ توفير الأمن والاستقرار، حتى يتسنى لكل أحد، تاجرا كان أم فلاحا أم حرفيا أم غير ذلك أن يباشر عمله، دون خوف أو تهديد، فقاموا بهذا الصدد بخوض صراع عنيف ضد البرتغاليين وأعوانهم، ونجحوا في القضاء على بعضهم، وايقاف حملات البرتغاليين على المناطق الداخلية[12].

كما نجحوا في أن ايعيدوا للمغرب وحدته الكاملة في أواسط القرن 10 هـ/16 م، بعد أن قضوا على دولة الوطاسيين في فاس وأخضعوا امارات شمال المغرب،
وتمكنوا أيضا من اخضاع القبائل العربية التي طالما هددت أمن السكان وأعاقتهم عن مباشرة أعمالهم، وفعاليتهم الاقتصادية المختلفة، تارة باستعمال القوة والعنف معها، وتارة باللين، كربطها بخدمة الدولة، واستخدام أفرادها في الجيش، مع إقامة الحصون والحاميات في البوابات والأماكن المخيفة من الطرق[13]، وتسليط أشد العقوبات على كل من يحاول الاخلال بالأمن.

2 ـ فك الحصار الاقتصادي الذي فرضه البرتغاليون والاسبان على المغرب

حينما تمكنوا من احتلال أغلب مدنه الساحلية ومواقعه الهامة . على الأطلسي والمتوسط، وحالوا بينه وبين التبادل الاقتصادي مع الدول الأوروبية. وقد نجح السعديون بهذا الصدد في تحرير العديد من المراكز التي كانت تحت الاحتلال البرتغالي، ومن أهمها آغادير وآسفي وآزمور في سنة 1541. ثم حرروا غيرها. وغدت معظم المراكز المحررة مراكز للمبادلات الاقتصادية مع أوروبا.

ولكن السلاطين السعديين الأوائل على الخصوص لم يهتموا فقط بتوفير الأمن والاستقرار الضروريين. لممارسة مختلف الفعاليات الاقتصادية . وبالتالي لتحسين الأوضاع الاقتصادية، أو بإيجاد المنافذ البحرية في وجه المبادلات الاقتصادية بين المغرب وأوروبا، بل كانت لهم جهودهم في مختلف المجالات الاقتصادية. لتطويرها. وتحسينها.

أ ـ جهود السعديين في مجال الزراعة:

ففي مجال الزراعة تثبت المصادر المعاصرة ان السلاطين السعديين ولا سيما الأوائل منهم قد أولوا اهتماما كبيرا لقطاع الزراعة فعملوا على توفير الشروط الملائمة للنهوض بهذا القطاع من توزيع الأراضي على القبائل. وتوفير الأمن للفلاحين لزراعة أرضهم، والاستكثار من غراسة الأشجار المثمرة وتربية الماشية. وشق القنوات. الخ.. إلا أن اهتمام السعديين بالزراعة يبرز خاصة في اهتمامهم منذ بداية أمرهم بزراعة قصب السكر اهتماما كبيرا، وذلك على ضفاف نهر السوس منذ عهد محمد الشيخ[14]، لملاءمة التربة هناك، ووفرة الماء للري. فكثّروا في عهده ثم في عهد خلفائه زراعته «حتى عم الاغتراس بالقصب الأوطان»[15] وكثر انتاج قصب السكر حتى لم تكن له قيمة في المغرب[16]، كما كثر اقبال التجار الأوروبيين على شرائه لانه كان خلال القرن 10 هـ/16 م مطلوبا بكثرة، قبل أن تبدأ البرازيل والانتيل بأمريكا في انتاجه ليس لقلته فقط في العالم ولكن أيضا لجودته العالية، صفاء وحلاوة. ولرخص ثمنه[17]، حتى ان اليزابيت ملكة انكلترا في النصف الثاني من القرن 16 م كانت لا تستعمل غيره[18].

وقد أصبح السكر موردا هاما للدولة، وكان مدخول السلطان محمد الشيخ عن كل رحى من الأرحية السبعة التي أقامها 7500 مثقال سنويا[19]. أما مدخول

أحمد المنصور من السكر فكان أكثر من 600،000 أونسة[20]. وفي تقدير آخر كان السكر يشكل ثلث مدخول الدولة السعدية[21].

وجر الاهتمام بزراعة قصب السكر الى اقامة قرى للعمال، وثكنات لحراسة حقوله، كقرية فريشة التي بناها عبد الله بن محمد الشيخ، وأقام فيها حامية تتألف من 300 فارس للغرض المذكور، وبلدة غارد التي بناها نفس السلطان قرب تارودانت[22].

وقد كانت معظم حقول قصب السكر، ومصافيه بيد الاشراف السعديين الذين كانوا يؤجرونها لقاء مبلغ معين عن كل سنة لطائفة من أهل الذمة[23]، وكانوا في الغالب يهودا، الا أنهم كانوا يتدخلون في تحديد أسعاره.

أما أهم حقول قصب السكر فهي كما ذكرنا توجد في السوس وكذلك في ششاون بحوز مراكش، والصويرة.

وقد قام السعديون بشق المجاري لري حقول قصب السكر، وأقاموا وسط هذه الحقول معامل لصناعة السكر. ولكن الاضطرابات التي شهدها المغرب في مطلع القرن 11 هـ / 17 م، بسبب تنازع أبناء المنصور على السلطة، قضت على مصانعه وخرّبت حقوله. وساهمت منافسة سكر البرازيل والانتيل في عدم ازدهار زراعته، وصناعته من جديد[24].

وفي اطار جهود السعديين في القرن 10 هـ/ 16 م في مجال الزراعة، واستغلالهم امكانيات المغرب الزراعية، وحرصهم على زراعة اراضيه، وعدم تركها بورا ، يذكر أنهم أقطعوا المهاجرين الأندلسيين أراض فسيحة في فحص مدينة مراكش، فقام هؤلاء بغراستها بمختلف أنواع الأشجار المثمرة كالزيتون، وغيره، وحوّلوها الى بساتين في غاية الجمال، والانتاج، حتى قال الفشتالي في وصفها: «فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم على ما أنساهم ذكر وطنهم، واعتاضهم مما فاتهم به.»[25].

وحسب مارمول فان عبد الله الغالب بالله الذي أقطعهم الأراضي المذكورة، قد خصص لكل واحد منهم أيضا مرتبا كالجنود، وأجرى لهم مجرى مائيا لري تلك الأراضي، وادارة أرحية عديدة أقيمت على ضفاف المجرى[26].

كما أجرى عبد الله أيضا عدة مجار في السوس [27] وغيره، لنفس الغرض. وقام المنصور بعده بتوزيع الأراضي على من يفلحها [28]. وألزم بعض القبائل المترحلة على الاستقرار في البادية، والاشتغال بالزراعة فيها وأجرى لها ما يكفيها من الأراضي [29].

ونتيجة لوفرة الأمن والاستقرار خاصة في عهد عبد الله (1557ـ1574) وعهد أحمد المنصور (1578ـ1603)، واهتمام السلاطين السعديين الأوائل بالزراعة، وتشجيعهم لها، انتعشت الزراعة في المغرب، وكثرت الماشية، وازدهرت الحياة في الريف. وفي مذكرة وليم لانكو الاسكوتلندي ما يؤكد ذلك أذ يقول، في وصف الريف المغربي في هذه الفترة: «كنا نجد في كل مكان الخمور المركزة، والخبز الفاخر الوفير، والدجاج السمين، والتين الكثير، والفواكه الأخرى كالزيتون، والزيت اللذيذ الطعم، نعم كان هذا في قرى عديدة لا تحصى، وهي ذات الدور المنيعة، المبنية بالآجر، والمرصوفة سطوحها... وعلى هذه التلال شاهدت الحقول المكسوة بقطعان الغنم والماعز، وكانت تلك القطعان في منتهى الضخامة» [30].

ولكن هذا الانتعاش الذي شهدته الحياة الاقتصادية في المغرب في المجال الزراعي وتربية الحيوانات لم يدم طويلا بعد وفاة المنصور، لاضطراب الأحوال من جديد، نتيجة تنافس أبنائه على السلطة كما تقدم، وكثرة الثائرين عليهم، فاضطرب الأمن، وانعدم في الطرق، والحقول، الأمر الذي لم يكن ليساعد على المحافظة على التطور الملحوظ الذي حققه المغرب في مجال الزراعة، وتربية الحيوانات بفضل توفر الأمن والاستقرار، ناهيك عن الاستمرار في التحسن والتطور، ثم ان المغرب أصيب بسلسلة من الأوبئة والمجاعات، كادت تكون متصلة من مطلع القرن 11 هـ/17 م حتى نهاية العقدالسادس منه. ومن أسوأ تلك الأوبئة والمجاعات التي شهدها المغرب في العقود الستة الأولى من القرن 11 هـ / 17 هـ يذكر ـ الوباء الطويل الذي بدأ في سنة 1006 هـ/1598 م واستمر حتى سنة 1016 هـ/1607 م [31] وذهب ضحيته خلق كثير من مختلف الفئات الاجتماعية بما في ذلك السلطان أحمد المنصور الذي توفي به سنة 1603 م. والمجاعة والوباء اللذان كادا يفنيان سكان مدينة فاس في أعوام 1611 ـ 1614 م، والطاعون الذي أصاب المغرب وكل شمال افريقيا في سنوات 1621 ـ 1623، والذي استمر بشكل متقطع حتى سنة 1636 ليظهر من

جديد في سنتي 1651 ـ 1652 [32].

وقد ذهب ضحية هذه الأوبئة والطواعين والمجاعات عدد كبير من الفلاحين، مما كان يعيق التطور نحو الأفضل.

ب ـ في مجال الصناعة:

أولى السعديون ولا سيما سلاطينهم الأوائل الصناعة اهتماما كبيرا:.

1 ـ فقد أقاموا كما ذكر منذ قليل، مصانع عديدة لصناعة السكر في عهود محمد الشيخ (1544ـ1557) وعبد الله (1557ـ1574). والمنصور (1578ـ1603). ولا سيما في عهد هذا الأخير الذي استكثر منها. ويبدو أن مصانع السكر التي بناها المنصور. تختلف كثيرا عن المصانع التي أقيمت في عهد محمد الشيخ. حيث أنها كانت أكثر تطورا من سابقاتها كما أكد ذلك الفشتالي بقوله: «... فجاءت الآثار بادرار الفتوح. ونبالة الصنائع. وتحكم الحضارة، ولطف الاختراع والتوليد. وسعة الذرع. وضخامة الشكل. بحيث لا تشبيه بينها، وبين ما تقدم زمانها.. وشأن هذه الخوارق الخارجة عن طوق البشر جفاء وعظمة وتوطيدا أو تشييدا ما شئت من برك رحيبة وجفان كالجوارب. وقدور راسيات، ولوالب فلسفية. وحركات هندسية» [33].

وحسب مارمول. فان السعديين استغلوا خبرة مسلمة اليهود والنصارى في اقامة مصانع السكر في عهد محمد الشيخ في السوس [34]. وكذا في عهود من تلاه، كما استغلوا في تصنيعه آخر الأساليب والطرق التي توصل اليها البنادقة [35].

جـ ـ ولم يكن اهتمام السعديين بصناعة الذخيرة والأسلحة المختلفة من مدافع، وبنادق. وسيوف. ورماح. وقسي. أقل من اهتمامهم بصناعة السكر. وذلك لحاجتهم الملحة اليها في حروبهم وتوسعهم.

فمحمد الشيخ السعدي المؤسس الحقيقي للدولة السعدية أنشأ ثلاثة مصانع في كل من تارودانت [36] ومراكش [37]. وفاس [38]. لانتاج الأسلحة المختلفة. وأنتج أول مدفع في العقد الخامس من القرن 10 هـ/16 م على يد أحد الموريسكيين، وذلك من نحاس منجم تنزيره الذي اكتشف في سنة 1539. في جنوب المغرب. كما انتج مصنع مراكش للأسلحة على يدي الموريسكي المذكور القسي والرماح

والسيوف، وأسلحة أخرى[39]. وفي نفس الفترة نجح أحد الجزوليين في صناعة كور المدافع من حديد جزولة[40].

واستكثر عبد الله من صناعة المدافع والأسلحة المختلفة في المصنع الكبير الذي أنشأه بمراكش وسماه الترسانة، وذلك تحت اشراف خبراء أتراك واندلسيين، وأنتج منها عددا كبيرا بحيث أن ولده محمدا الذي تولى بعده خرج لمحاربة عمه عبد الملك، الذي نازعه الملك واستعان بأتراك الجزائر العثمانيين، وفي محلته أكثر من مئة وخمسين مدفعا[41]، منها واحد ذو تسعة أفواه، أهداه عبد الملك بعد النصر الى أتراك الجزائر[42].

واستكثر عبد الملك بدوره من صناعة الأسلحة لأنه كان مهددا بحملة برتغالية ضخمة. وقد كان عارفا بصناعتها ويباشر الأمور بنفسه[43]. وبفضل السلاح الكثير استطاع المغاربة أن يهزموا حملة البرتغاليين في وادي المخازن هزيمة ساحقة في أوت سنة 1578.

واهتم المنصور الذي توج بعد المعركة المذكورة بصناعة الأسلحة رغم السلاح الكثير الذي ظفر به في المعركة، والسلاح الذي كان يأتيه به التجار الأوروبيون الى المغرب، وأنشأ مجمعا آخر للمدافع وغير ذلك أسماه «دار العدة» على مقربة من قصبة مراكش، كان يجمع فيه كثيرا من المدافع وغيرها. كما يفهم ذلك من قول مؤرخ الدولة السعدية عبد العزيز الفشتالي: «واما ما يفرّغ مع الأيام من مدافع، ومكاحلها بدار العدة.. إلى ما يجلب مع الأحيان على يدالمعاهدين من التجار الحربيين من السيوف الهندية والقسي الرومية، والمكاحل النارية فشيء عصّت به الخزائن السلاحية والديار العادية»[44].

3 ـ وأولى السلاطين السعديون الأوائل اهتماما كبيرا أيضا بصناعة السفن حيث تذكر الوثائق أن محمدا الشيخ كان عازما على تأسيس أسطول كبير، بعد أن تمكن من توحيد المغرب تحت سيادته في أواسط القرن 10 هـ/16 م، وذلك للاستعانة به في الجواز الى الاندلس لاسترجاعه، وفي تحقيق رغبته في تحرير المراكز المغربية الباقية بيد البرتغاليين والاسبان[45]، والاستفادة منه في أعمال الغزو البحري على غرار أتراك الجزائر. فخاطب في هذا الشأن أبا حسون الوطاسي أمير بادس التي كانت تشتهر ببناء السفن الخشبية لوفرة الخشب الملائم في جبال بادس، وطلب منه

أن يبني له مئة غاليره، وما يماثلها من سفن النقل، ولكن أبا حسون الوطاسي لم يستجب له[46]، فتطورت العلاقات بين الطرفين نحو العداء والاقتتال[47].

وقد كان عزمُ محمد الشيخ علي تأسيس أسطول بحري كبير للهجوم على الاسبان والبرتغاليين كافيا ليجعل هؤلاء الأخيرين يرحلون عن ثلاثة مواقع أخرى كانوا يحتلونها في شمال المغرب، هي: آصيلا، والقصر الصغير وسينال Seinal في سنة 1550[48].

ولما آل الحكم الى عبد الملك في سنة 1576 اهتم اهتماما خاصا بصناعة السفن، فأمر بانشاء السفن في العرائش، وسلا[49]، وبلغ عدد قطع الاسطول المغربي في عهده في سنة 1577 أربعين سفينة[50]، وهو عدد يقارب أو يماثل عدد السفن التي كانت لدى الجزائريين في نفس الفترة.

ولم يكن المنصور أقل اهتماما من أخيه عبد الملك، اذ عمل على الاستكثار من السفن بمختلف الوسائل، عن طريق الصناعة في قواعد المغرب البحرية من جهة وعن طريق الشراء من الدول الأوروبية من جهة أخرى، وحرص على أن يكون أسطوله كبيرا، ولتحقيق غرضه هذا كان يستورد العتاد اللازم لصناعة السفن من انكلترا[51]، بل ان المنصور طلب من اليزابيت ملكة انكلترا حتى النجارين وبناة السفن[52].

ويقول الفشتالي بصدد اهتمام المنصور ببناء الاسطول المغربي وصناعة السفن: «ثم صرف همته ـ أيده الله ـ الى اتخاذ الاسطول برباط سلا... فتعددت مراكبه»[53].

ولكن الاسطول السعدي لم يتألق مثل نظيره الجزائري في نفس الفترة،ولم يحقق به محمد الشيخ، ولا أحمد المنصور الأهداف المعلقة عليه، وفي مقدمتها تحرير ما بقي من المراكز المحتلة من قبل الاسبان والبرتغاليين، واستعادة الاندلس.

4 ـ وأظهر السعديون الأوائل اهتماما غير قليل باستخراج المعادن وتصنيع قسم منها محليا، وتصدير الفائض الى الدول الأوروبية. وقد تقدمت الاشارة الى استخراجهم النحاس من تنزيره،وصناعة مدافعهم الأولى منه، كما كانوا يستخرجون النحاس من منجم قريب من افران بأقصى جنوب المغرب، كان تصنع منه في افران، أوان جيدة الصنع كالمزاهر وغير ذلك من الأواني[54]. وقد كان قسم منها يسوق في

المغرب أما القسم الآخر فكان يصدر الى بلاد السودان الغربي.

واستمر في عهدهم استخراج الحديد من جزولة. وتصنيع مختلف الآلات منه بما في ذلك كور المدافع كما ذكر من قبل. الا أن الصناعة المغربية للمعادن لم تكن تفي بالحاجة ولذلك كان المغرب يتلقى أدوات جاهزة نحاسية وغير نحاسية من أوروبا [55].

وقد شرع في عهد السلاطين السعديين الأوائل في استخراج ملح البارود من مواقع عديدة وتصنيع الكثير منه محليا. اذ ان ملح البارود كان من المواد التي لا يرغب المغاربة في تصديرها. وإن صدروا كمية منه فعلى مضض [56].

أما صناعة الذهب في المغرب فكانت قائمة. وحظيت باهتمام كبير. لما كان يتدفق منه على خزائن السعديين ولا سيما في عهد المنصور الذي أصبح لكثرة ما يملكه من الذهب يلقب بالذهبي. «وقد كان بباب المنصور أربعة عشر مئة مطرقة تضرب كل يوم الدينار غير ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط. والحلي. وشبه ذلك» [57].

وكان الذهب الذي يحصل عليه محمد الشيخ من تيغازه بشمال بلاد السودان يصهر ويوزن ويعلم في بلدة تاراجال ، بدرعة جنوب المغرب. قبل حمله الى مراكش [58].

وقد كان بعض السلاطين السعديين ، وخاصة السلطان أحمد المنصور، شغوفا بالمخترعات، مولعا بها، لا يقنع بالمألوف منها. مما دفع الحرفيين، وأصحاب الصنائع الى الابتكار والتجديد، وهو ما لاحظه الفشتالي وأكده بقوله: «...واتسع التوليد والاختراع، واطرد قياس المشاهد على الغائب، وعظمت الأنفة من الاقتصار على الكفاية...» [59].

كما كان المنصور يستقدم المهرة من الصناع، من مختلف الدول، سواء لصناعة السفن كما مرّ أو لبناء قصره «البديع» أو لصناعة الأسلحة، أو لغير ذلك. ونتيجة لاحتكاك المغاربة بهؤلاء الحرفيين والصناع. وتشجيع السلاطين للصنائع والحرف أصبحت المصنوعات المغربية على درجة عالية من الجودة، والتنوع، والوفرة، وهو ما أكده من جهته وليم لانكو السابق الذكر في مذكرته حيث قال بصدد زيارته لاحدى المدن المغربية: «وهذه المدينة مزودة بجميع أنواع الذخائر، مما يصلح للانسان أو الحيوان...» [60].

ولكن التقدم الصناعي الذي حققه أوائل السعديين في عديد من المجالات أصيب بنكسة بعد وفاة المنصور للأسباب ذاتها، التي أثرت على الزراعة أي نتيجة اضطراب المغرب في الثلثين الأولين من القرن السابع عشر الميلادي (11 هـ) ذلك الاضطراب الذي نجم عن نزاعات أبناء المنصور، والأوبئة الكثيرة التي أشير اليها، بالإضافة الى تجدد الأطماع الخارجية فيه، وكثرة الثائرين في الداخل. وفي خضم هذا الاضطراب، والفتن التي شهدها المغرب بعد المنصور، تأثر نشاط المصانع والمعامل المغربية بما لحقها من تخريب، كما حدث لمصانع السكر التي خربت في هذه الفترة، وما أصاب فئة الصناع والحرفيين من خسائر في الأرواح حيث لم تكن الفتن والأوبئة تستثني أي فئة من الفئات الاقتصادية من أضرارها.

ج ـ في مجال التجارة

اهتم السعديون، ولا سيما الأوائل منهم بالتجارة الداخلية والخارجية اهتماما كبيرا. فعملوا على توفير الشروط الضرورية لازدهارهما. وفي مقدمتها توفير الأمن والاستقرار في الطرق والأسواق، وفي الأرياف والمدن، وايجاد المنافذ البحرية العديدة في وجه التجارة الخارجية مع أوروبا ومع غيرها، والتحكم في محاور التجارة مع بلاد السودان. ومحاربتهم المنافسة الخارجية لتجارة المغرب مع هذه الأخيرة، ولا سيما منافسة البرتغاليين الذين وصلوا الى خليج غينيا عام 1440، واتصلوا بمصادر الذهب السوداني. والعبيد من الزنوج. وأنشأوا عدة مراكز تجارية على المحيط الأطلسي.

فلتوفير الأمن في الطرق والأسواق أقام السعديون ـ كما تقدم الذكر ـ الحاميات العديدة في المواقع الخطيرة، وعاقبوا بشدة من حاول قطع الطرق، أو إشاعة الفوضى في الأسواق، من الأفراد والقبائل.

وظهر جهد السعديين في ايجاد المنافذ البحرية في وجه التجارة الخارجية للمغرب في سعيهم المبكر الى تحرير بعض المواقع على الساحل الأطلسي مثل تفتنت [61] في سنة 1510 م ثم آغادير في سنة 1541 [62].

أما جهودهم للتحكم في محاور التجارة مع بلاد السودان الغربي فظهرت في سعيهم ابتداء من العقد الثالث من القرن 10 هـ/16 م. الى مد نفوذهم الى واحات

توات التي لا تخفى أهميتها، حيث كانت تتجمع فيها القوافل التجارية الذاهبة الى بلاد السودان، والآيبة منها، والمتوجهة الى الجزائر. وتونس والمغرب. بحيث أن المسيطر عليها يصبح قادرا على التحكم في توجيه حركة القوافل الى حيث يريد. وكان المغرب قد فقد سيطرته على توجيه القوافل منذ فترة طويلة تعود الى ما بعد وفاة السلطان المريني ابن عنان في سنة 1358 م. لاضطراب أحوال المغرب بعده. فمالت حركة القوافل التجارية أكثر نحو الجزائر وتونس[63].

وأما جهود السعديين في محاربتهم للمنافسة الخارجية للمغرب في التجارة مع بلاد السودان فتجلت في الحملة التي قادها محمد الشيخ في حدود سنة 1543 م الى ودان[64]، التي نجح البرتغاليون في استمالة شيخها الى التجارة معهم، في مركزهم التجاري الساحلي الذي أقاموه لهذا الغرض في آرجن Arguin، ونجاح تلك الحملة في اخضاع ذلك الشيخ، واحباط المساعي البرتغالية. ثم ان محمداً الشيخ أخذ يخطط منذ ذلك التاريخ لإخضاع بلاد السودان، وهو ما تحقق في عهد ولده أحمد المنصور، الذي نجح في اخضاع بلاد السودان الغربي بالقوة في نهاية القرن 10 هـ / 16 م، والقضاء بذلك على المنافسة التي كان المغرب يعاني منها في التجارة معه[65].

ولكن جهود سلاطين المغرب السعديين لم تقتصر على ما تقدم ذكره من التدابير لإنعاش التجارة الداخلية والخارجية، بل أضافوا اليها تدابير أخرى منها:

ـ التخفيف من الرسوم على التجار المغاربة، أو الغاء بعضها تماما في عهد المنصور[66] وتخفيض الرسوم الجمركية على التجار الأجانب بحيث لا تتجاوز 10٪ في الواردات الى المغرب، وأقل من ذلك عن الصادرات منه[67].

ـ والمعاملة الحسنة للتجار الوافدين الى المغرب، والترحيب بهم، واعطاء الأمان لهم طيلة إقامتهم فيه، وهو ما شهد به ديبقودو طوريس (Diego de Torres) الذي أقام فترة في المغرب في عهد محمد الشيخ، وكان على صلة به وبأبنائه[68].

ـ وبناء الجسور على الأنهار تسهيلا للمواصلات بين مختلف الجهات في داخل المغرب كجسر نهر أم الربيع وغيره، والموانئ المناسبة لاستقبال السفن التجارية[69].

ـ وتوفير العملة النقدية التي استكثر منها السلاطين السعديون الأوائل[70]، ولا سيما السلطان المنصور الذي «كان ببابه كل يوم أربعة عشر ماية مطرقة لضرب الدينار، دون ما هو معد لغير ذلك..»[71]. وقد كان الاقبال شديدا على العملة

المغربية من قبل التجار الأوروبيين الذين كانوا يهربونها على الرغم من المراقبة الشديدة التي فرضها المنصور للحيلولة دون ذلك[72].

وبفضل كل التدابير المذكورة عرفت تجارة المغرب الداخلية بين مختلف المناطق وكذلك تجارته الخارجية مع دول عديدة، انتعاشا، بل ازدهارا ملحوظا في عهد السعديين، ولا سيما في خلال النصف الثاني من القرن 10 هـ / 16 م.

وقد تجلى ذلك من التحسن الكبير الذي شهدته بعض المراكز التجارية التي كانت على وشك الخراب والاضمحلال كمراكش. أو الازدهار الذي عرفته بعض المراكز الجديدة كأغادير، وهذا التحسن أكده المؤلف المجهول بصدد حديثه عن عهد المنصور، قائلا: «... وكثر البيع والشراء في أيامه واستمرت الهدنة والعافية في أوانه...»[73]. كما أثبته من جهتهم الملاحظون الأجانب[74]. الذين أقاموا في المغرب أو زاروه خلال القرن 10هـ/16 م. حيث لاحظوا وسجلوا في مذكراتهم ورواياتهم اقبال التجار الأوروبيون الى المغرب. رغم تربص البرتغاليين بهم، وتوعدهم بمعاملة من يقبضون عليه منهم في المغرب. معاملة الأعداء. اذ كانوا يعتبرون المغرب من مناطق نفوذهم. بمقتضى براءات التقسيم البابوية لبلاد افريقيا والعالم بينهم. وبين الاسبان خلال القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي، وبالتالي . لا يجوز لغيرهم الاتجار فيه بدون ترخيص منهم. كما لا يجوز لغيرهم من الدول غزوه. واستعماره.

ولا شك أن تجشم التجار الأوربيين مخاطر الوقوع في أسر البرتغاليين، وعدم انقطاعهم عن المجيء للتجارة في المغرب يعود الى المرابح الكبيرة التي كانوا يحققونها في تجارتهم معه[75]، إضافة الى المعاملة الطيبة التي كانوا يجدونها عند السلاطين السعديين الأوائل على الخصوص.

تجارة المغرب مع أوروبا:

أما أهم الدول الأوربية التي كان المغرب يتبادل مع تجارها السلع المختلفة فهي:

ـ **انكلترا**: وقد أقام أبناء محمد الشيخ ثم أحفاده علاقات مباشرة مع ملوكها ابتداء

من عبد الله الغالب، وكان غرض السعديين الرئيسي من اقامتهم للعلاقات مع انكلترا والدول الأوروبية الأخرى هو الحصول على ما يلزمهم من الأسلحة والمعدات الحربية. بالإضافة الى تنشيط التجارة بين البلدين في مختلف البضائع الأخرى، ولتحقيق غرضهم هذا كانوا يتوددون الى ملوك انجلترا. وفي رسالة عبد الله الغالب بالله الى اليزابيت ملكة انجلترا، في سنة 1561 ما يؤكد ذلك اذ أبدى لها فيها رغبته القوية في الفوز بصداقتها، واستعداده لتلبية طلباتها[76].

واقتفى محمد بن عبد الله أثر والده فتقرب من انجلترا وعقد معها اتفاقية أمنت السفن الانكليزية والتجار الانكليز في المغرب[77].

وكاتب عبد الملك بدوره اليزابيت معبرا عن رغبته في صداقتها والاستجابة لكل طلباتها الممكنة، ثم ارتقت العلاقات بين الطرفين الى تبادل السفراء، ومنح عبد الملك تسهيلات تجارية للانكليز، كحرية المجيء والذهاب والبيع والشراء دون قيود. والتزم بمعاملة حسنة لمن يتاجر منهم في المغرب، ولسفنهم كضمان أمنهم، وسلامة سفنهم في موانئ المغرب، وأبدى استعداده للتوسط للانكليز لدى الدولة العثمانية بشأن تقديم تسهيلات لهم[78].

ولكن العلاقات التجارية بين المغرب وانكلترا استحكمت أكثر بين أحمد المنصور واليزابيت، مما حدا بهذه الأخيرة الى تأسيس الشركة البربرية للتجارة في سنة 1585، منحت حق احتكار التجارة الانكليزية مع المغرب لمدة 12 سنة. وتطورت نحو تحالف سياسي عسكري، وإقامة مشاريع مشتركة ذات طابع اقتصادي كغزو الهند واستغلال خيراته. ولكنها لم تتحقق لانعدام الثقة الكاملة بين الطرفين[79].

وبعد أن مرت العلاقات بفترة من الفتور في أواخر عهد المنصور، استؤنفت العلاقات التجارية بين البلدين، واستمرت التجارة بينهما حتى بعد موت المنصور. لكن اضطراب الأوضاع في المغرب كان يؤثر عليها، وعلى العلاقات بين حكامها، اذ كانت انكلترا تتصل بكل القوى السياسية التي ناوأت السعديين في المغرب في النصف الأول من القرن 11 هـ/17 م مما أثار استياءهم، فبعد أن كانت تتاجر مع السلاطين السعديين، أو عن طريقهم، أصبح الانكليز يتاجرون في جنوب المغرب، لكن مع الثائر عليهم كأبي حسون السلالي، وفي شماله مع القوى التي نشأت هناك

كقوى الاندلسيين، ثم الدلائيين وغيرهم.

وتأتي **فرنسا**، **واسبانيا**، **وايطاليا**، **وهولندة**، في المقام التالي بعد انجلترا، فخلال القرن 10 هـ/ 16 م أبدى السعديون رغبتهم في تطوير علاقاتهم مع فرنسا، وذهب السلطان عبد الله الى حد التنازل لانطوان دوبوربون عن بلدة القصر الصغير الواقعة على مضيق جبل طارق، والقبول له بإقامة سوق اسبوعية فيها[80].

وكان يقصد المغرب أيضا تجار من اسبانيا وبعض المدن الايطالية، وساهم بعضهم فعلا في نقل الرخام من ايطاليا الى المغرب لبناء قصر البديع الذي شيده المنصور[81] ليأخذوا السكر بدلا عنه.

وفي النصف الأول من القرن 11 هـ/17 م أخذت هولندة تحتل أهمية متزايدة في التجارة مع المغرب، ولا سيما مع الدلائيين الذين أسسوا في هذه الفترة إمارة مستقلة عن السعديين[82].

وإذا ما أمعن النظر في المواد التي كان الأوروبيون يقبلون على استيرادها من المغرب، وفي المواد التي كان السعديون وغيرهم من المغاربة يرغبون في الحصول عليها من أوروبا وجد أن في طليعة صادرات المغرب الى أوروبا، السكر المصنى وغير المصنى، ثم تليه المواد الأخرى كالتمر، واللوز، والشمع، والجلود، وبعض المعادن كالنحاس، وملح البارود، ولو أن تصدير هذا الأخير كان بشكل محدود، وخاضع لقيود وشروط، وتنازلات من البائع والمشتري، والعنبر، وغير ذلك، وكان التجار الأوروبيون يرغبون جدا في الحصول على العملة المغربية الذهبية، غير أن الذهب وتبره كان من المواد المحظور تصديرها على الرغم من وجوده بكثرة في عهد المنصور بصفة خاصة. ولذلك كانوا يلجؤون الى تهريبه، رغم المراقبة الشديدة التي فرضها المنصور للحيلولة دون ذلك. وتذكر الوثائق ان التجار الانجليز قد نجحوا في تهريب كميات كبيرة منه[83] وكانت الماشية، والخيل، والحبوب أيضا من المواد المحظور بيعها الى أوروبا.

أما أهم واردات المغرب من هذه الأخيرة فهي الأسلحة المختلفة الهجومية والدفاعية، ومعدات بناء السفن، وبعض الأدوات المعدنية الجاهزة. وتأتي الأقمشة الصوفية والكتانية العالية الجودة، ذات اللون الأزرق المشبع التي كان علية القوم في البلاد المغربية يتخذون منها لباسهم في الدرجة الثانية من حيث الطلب، والرواج في

المغرب.. وكان الانجليز هم أكثر توريدا لها اليه[84].

ولكن تجارة المغرب مع أوروبا قد تأثرت بشكل عام باضطراب أحوال المغرب الداخلية خلال الثلثين الأولين من القرن 17 م ـ 11 هـ، وبتزايد أخطار القراصنة في البحر الأبيض المتوسط والمحيط ، أضف الى ذلك أن بعض التجار الأوربيين كانوا يحجمون عن المجيء الى المغرب خشية الاصابة بالأوبئة التي كادت تكون مزمنة فيه خلال النصف الأول من القرن 17 م ـ 11 هـ.

ثم ان السكر الذي كان يجذب التجار قد قضت على زراعته وصناعته الاضطرابات المذكورة، ودخل سكر البرازيل حيز التصدير على نطاق واسع بحيث قضى على الحاجة الى سكر المغرب، ثم ان الذهب الذي كان يستقطبهم قد أخذ يتناقص وصوله الى المغرب خاصة بعد وفاة المنصور سنة 1603 م.

تجارة المغرب مع بلاد السودان:

كانت تجارة المغرب مع بلاد السودان دوما أحد عوامل ازدهاره حين تكون مزدهرة كما كانت أحد عوامل ضعفه حين تضطرب أو تتدهور وقد بلغ المغرب مبتغاه في التجارة مع تلك البلاد حين سيطر على توات ثم على بلاد السودان نفسها، وقضى على المنافسين له في التجارة مع هذه البلاد، فأصبحت مدنه الجنوبية كتدسي، وتارودانت، ومراكش المحطات الأخيرة للقوافل التجارية مع بلاد السودان، طوال عهد المنصور. ولكن التجارة المغربية مع بلاد السودان تأثرت كثيرا في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، بعد أن بلغت أوجها في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، ذلك أن توات التي ذكر أنها تتحكم في توجيه حركة التجارة بين بلاد السوذان وبلاد شمال افريقيا، استطاعت أن تستعيد حريتها في خضم الاضطرابات التي شهدها المغرب بعد المنصور، فأخذت محاور التجارة تميل من جديد نحو الشرق الى الجزائر وتونس[85]. ثم ان المنافسة الأوروبية لتجارة المغرب عن طريق البحر مع بلاد السودان قد قويت؛ فبعد أن كان البرتغاليون هم المنافسين فقط للمغرب، ثم تلاهم الاسبان الذين خلفوهم في أواخر القرن 10 هـ ـ 16 م صار كل من الفرنسيين والانجليز والهولنديين في النصف الأول من القرن 11 هـ ـ 17 م منافسين له أيضا.

وقد نتج عن ذلك تناقص في عددالقوافل الذاهبة من المغرب الى بلادالسودان مراكش سوى قافلة واحدة، كل ثلاث سنوات، بعد أن كانت تأتي اليها قافلة كل سنة، واستمر ذلك حتى سنة 1603 تاريخ وفاة السلطان أحمد المنصور، فتناقص بذلك وصول الذهب من بلاد السودان، حتى أن السلطان السعدي الوليد بن زيدان حظر خروج كل عملة ذهبية من المغرب[86]. وهكذا عرفت التجارة المغربية مع بلاد السودان ارتفاعا وانخفاضا في الفترة موضوع البحث.

وقد كانت صادرات المغرب الى بلاد السودان تتركز في الأدوات الحديدية والنحاسية المصنعة في المغرب، والخيول، والتمر، والحبوب، والكتب، وفي الملح بصفة خاصة.

أما أبرز وارداته منها فكما ذكر هي الذهب أو التبر والعبيد. وقد حصل السعديون من بلاد السودان ولا سيما بعد نجاحهم في احتلاله سنة 1591 على كميات كبيرة من التبر، حيث قدرت بعض الوثائق المعاصرة ما كان يدخل دار السلطان كل سنة منه بنحو ستين قنطارا[87]، حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النظار الصافي والدينار الوافي. ـ كما تقدمت الإشارة ـ «كان ببابه أربعة عشرماية مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلي، وشبه ذلك . ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه»[88].

كما حصل المنصور على أعداد كبيرة من عبيد السودان[89]، كان يستعملهم في جيوشه البرية والبحرية، وانجاز مشاريعه العمرانية كقصره البديع وغيره.

تجارة المغرب مع الجزائر :

بالرجوع الى المصادر المتوافرة يمكن القول ان التجارة بين البلدين كانت قائمة، ومستمرة رغم التقلبات التي شهدتها العلاقات السياسية بين البلدين في الفترة موضوع البحث. ولكن تلك المصادر لا تشير الى ارتقاء العلاقات الاقتصادية الى مستوى اتفاقيات اقتصادية بين البلدين، أو الى تحديد للرسوم الجمركية مثلا. كما أنه لا يتبين لأول وهلة أية حرب اقتصادية ضد بعضهما. إلا أن اتجاه الحكم العثماني نحو الجنوب الجزائري، وسيطرته على المراكز التجارية فيه مع بلاد السودان، وبالمقابل احتلال المغرب للسودان يؤكد التنافس الاقتصادي الخفي بين الجزائر والمغرب على

التجارة مع بلاد السودان منبع الذهب والعبيد من الزنوج. بل يمكن أن يرى في احتلال المنصور لتوات ثم للسودان حربا واضحة اذ استطاع أن يحول محور التجارة مع السودان من الجزائر وتونس وليبيا الى المغرب بصفة خاصة. ولو أن البقاء القوي للمغرب في السودان لم يعش طويلا أكثر من حياة المنصور.

واعتمادا على ما تذكره المصادر بخصوص المواد المتبادلة بين الجزائر والمغرب نجد أن صادرات المغرب الى الجزائر كانت تتمثل في السكر، والذهب، والأحجار الكريمة، والجلود المدبوغة، والأحذية والأغطية، والمنسوجات القطنية، والحريرية، والخيول، والفيلة، والصابون والأمشاط، والسيوف، وغير ذلك[90].

أما وارداته من الجزائر فكانت الأقمشة الهندية والقسطنطينية. والأجواخ الانجليزية، والمواد الصباغية، ودواب الركوب، ولوازم السفر. والمواد الغذائية. والبرانس، والدروع، والبخور وغيرها[91].

تجارة المغرب مع تونس والمشرق العربي:

وقد كان للمغرب في عهد السعديين تجارة أيضا مع تونس والمشرق العربي، ولو كان ذلك بشكل محدود، وبمناسبة الحج في الغالب، لبعد المسافة من جهة. ولخضوع تلك البلاد للدولة العثمانية، ولتوتر العلاقات بين السعديين وهذه الأخيرة، وجيرانهم الأتراك العثمانيين في الجزائر في كثير من الأحيان، ومخاطر الطريق البحري خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين.

إلا أن تجارة المغرب مع تونس كانت فيما يبدو أكثر نشاطا وحيوية إذ كانت تتجه كل سنة انطلاقا من سلا قافلة تجارية محملة بمختلف البضائع إلى تونس[92] لتعود منها ببضائع أخرى مرورا بمراكز تجارية عديدة في الجزائر، وان كان ليس معروفا ما إذا كان للسعديين بالذات أي دور في تشييد هذه القافلة، اذ كانت تنطلق من مدينة مالت الى الاستقلال عن السعديين خاصة في الثلث الثاني من القرن 11 هـ/17 م، حيث أسس فيها الأندلسيون إمارة مستقلة لهم فيها قبل أن تخضع هذه الامارة للدلائيين.

أهم المراكز التجارية:

وإذا ما أريد الآن معرفة أهم المراكز التجارية التي شهدت انتعاشا بفضل جهود السعديين، والتي كانت مراكز للمبادلات التجارية مع مختلف جهات المغرب، ومع مختلف الدول، وجد أن أهمها هي:

1 ـ **مراكش** التي كانت من بين المراكز التي كاد يصيبها الخراب في مطلع القرن 10 هـ / 16 م، ويعود الفضل في ازدهارها منذ عهد أوائل السعديين ليس فقط الى الأمن الذي أخذ يعم ربوع المغرب شيئا فشيئا ابتداء من الجنوب، ولكن أيضا الى اتخاذ السعديين لها عاصمة لدولتهم منذ أواخر العقد الثالث من القرن 10 هـ / 16 م، فغدت تعج بالتجار المغاربة والأجانب، وبمختلف السلع، وفي هذا الصدد يقول مارمول، الذي مكث فيها فترة في عهد محمد الشيخ وابنه عبد الله الغالب، واصفا ساحة مراكش: «هنالك عديد من المحلات في هذه الساحة للحدادين والاسكافيين، والنجارين، وللتجار في مختلف المواد الغذائية، وفي أحد الجوانب يباع الحرير، والأقمشة الكتانية والقطنية، والصوفية الناعمة والخشنة، الملبدة وغير الملبدة، وهناك موقع للجمارك وللتجار الأوروبيين، وفيه تجري العمليات التجارية الهامة في المدينة. وتنعقد في الساحة كل يوم خميس سوق، يقصدها الناس من مختلف الجهات لبيع أو شراء كل أنواع الحيوانات والأغذية[93]».

2 ـ **تارودانت**: التي كان أغلب سكانها إما تجارا أو حرفيين، والتي صارت في عهد السعديين إحدى أهم مدن افريقيا[94]، وكيف لا وقد كانت العاصمة الأولى للسعديين قبل مراكش.

3 ـ **أغادير وآسفي** الساحليتان اللتان أصبحتا من المراكز التجارية، والمبادلات التجارية بين المغرب والدول الأوروبية، بعد أن حررتا من الاحتلال البرتغالي في سنة 1541 م.

4 ـ **سلا. العرائش. وتطوان** في شمال المغرب التي ازداد فيها النشاط التجاري بشكل ملحوظ.

5 ـ **تافيلالت أو سجلماسة** التي شهدت نشاطا تجاريا متزايدا الأهمية منذ أن أدخلها محمد الشيخ تحت سلطته عنوة، وزال عنها تهديد الاعراب لها، فغدت فيها

تجارة قوية في النيلة الجلود التي كان يأتي لشرائها تجار أوروبيون ومن بلاد البربر، وكذلك التمر الذي كان يصدر الى مختلف الجهات في المغرب وحتى اسبانيا[95].

وفي نهاية البحث في النشاط التجاري للمغرب في العهد السعدي تجدر السلاطين السعديين ولا سيما الأوائل منهم. قبل أن يدب الضعف اليها في عهد المتأخرين منهم لنفس الأسباب التي أدت الى تدهور الزراعة والصناعة في نهاية عهدهم يظل غير ممكن. في غياب الاحصائيات لكل صادرات المغرب وارداته في مختلف المواد، ومع مختلف الدول.

وخلاصة القول:

إن الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين قد شهدت أطوارا مختلفة، فبعد أن كانت في شبه أزمة حادة في بدايتها، انتعشت انتعاشا ملحوظا في النصف الثاني من القرن 16 م/10 هـ . لتوفر الشروط الملائمة لنشاط مختلف الفعاليات الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية ، من الأمن والاستقرار الداخلي. والتشجيع والتنشيط من الدولة، وقد أدت مساهمة هذه الأخيرة في مختلف الفعاليات الى إيجاد أبعاد أوسع للتجراة، وأعماق أبعد، كالتحكم في الطرق التجارية البرية في الداخل، ومع بلاد السودان ثم السيطرة على هذه الأخيرة والانتفاع بخيراتها والاستحواذ عليها.

وتكامل جهات المغرب في حاجتها الى المواد المختلفة، وامتلاك المغرب للمواد الأكثر طلبا في الخارج كالذهب والسكر، والمعادن، والجلود، وغير ذلك. وتشجيع أوائل السعديين للمبادلات التجارية مع كثير من البلدان الأوروبية، وكذا مع البلاد المجاورة.

ولكن الحياة الاقتصادية في المغرب السعدي ضعفت من جديد بشكل عام خلال الثلثين الأولين من القرن 11 هـ / 17 م. لانتفاء معظم الشروط التي كانت من عوامل انتعاشها في الوقت الذي كان العالم يشهد تحولات جديدة في غير صالح المغرب، حيث جعلته أقل حاجة الى مواده. وأكثر قدرة على انتاجها أو الحصول عليها من أماكن أخرى، سواء من العالم الجديد أو من بلاد السودان. التي فقد المغرب فيها السيطرة الكاملة مع بداية القرن 11/17 هـ. بل ان المغرب هو الذي

سيصبح أكثر حاجة الى الدول الأوروبية وغيرها ليس فقط في مجال الأسلحة كما كان ولكن أيضا في مجالات استهلاكية عديدة أخرى بما في ذلك السكر الذي كان المصدر الأول له.

الهوامش

(1) انظر عن قيام الدولة السعدية:
- المجهول : تاريخ الدولة السعدية التاكمدارتية تصحيح ج. كولان. الرباط 1934. (الصفحات الأولى).
- الإفراني (محمد الصغير): نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي تصحيح هوداس. آنجي 1888 ص 16 وما يليها.
- السلاوي (ابو العباس أحمد بن خالد الناصري): كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق ولدي المؤلف. الدار البيضاء 1955. الجزء الرابع.

(2) الحسن الوزان المعروف بليون الافريقي : Léon, l'Africain ou Description de l'Afrique trad. de l'Italien par A. Epaulard, 2 vol. Paris, 1956, t. I, p. 274, 289 et passim.

وقد عرب هذا الكتاب القيم الدكتور عبد الرحمن حميده في مجلد واحد . السعودية 1399 إلا أن الاعتماد في هذا البحث كان على الترجمة الفرنسية.

(3) Luiz de Soussa: Les portuguais et l'Afrique du Nord, trad. R. Ricard, Lisbone 1940.

(4) F. Braudel: Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577--in--Rev. Africaine — Alger 1928.

(5) Marmol (L. de Caravajal): Description de l'Afrique, trad. Perrot d'Ablancourt, Paris 1667, t. 2, p. 83, 240 et passim.

(6) الوزان - المصدر السابق جـ 1. ص 111. 113. 317. 318 . وغيرها - ومارمول جـ 3 ص 18-22 وغيرها.

(7) مارمول: نفس المصدر جـ 2 ص 35. والمجموعة القيمة من الوثائق التي جمعها هنري دوكاستري وآخرون من مختلف أرشيفات الدول الأوروبية. عن الدولة السعدية والدولة العلوية وحققوها ونشروها في 21 مجلدا. تحت عنوان (Sources inédites de l'histoire du Maroc)

وقد استفدنا كثيرا من الأجزاء المخصصة للدولة السعدية وسنختصر العنوان في هذا البحث على حرفين (S.I.) مع ذكر بلد الوثيقة الى جانبه والجزء والصفحة. وانظر خاصة :

S.I. Espagne , t. 1 p. 14--17.

(8) F. Braudel: La Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe 2, 2 vol. Paris 1966, t I, p. 427.
R. Ricard: Les Portugais et le Sahara Atlantique, in--Hseperis-- t 10, Paris 1930, p. 108.
(9) Martinet, et Autres: Histoire du Maroc, Casablanca 1967, p. 169--170.

(10) هو قائد عرب اقليم دوكالة. وحاحة. اتخذه البرتغاليون قائدا عاما للعرب الموالين لهم. انظر عنه وعن عملاء آخرين: الوزان المصدر السابق جـ 1 وكذلك :

Torrès (Diégo de): Relation de l'origine et Succès des cherifs Paris 1636, p. 73--74.

(11)السلاوي: المرجع السابق جـ 4 ص 165.

(12) طوريس. المصدر السابق ص 73 ـ 74.

(13) مارمول: المصدر السابق جـ 3 ص 6.8.16.17 وغيرها.

(14) كان نائبا لأبيه ثم لاخيه على اقليم السوس قبل أن يستقل بالأمر ابتداء من 1544 الى تاريخ مقتله في اكتوبر 1557 على يد حرسه من الأتراك.

(15) الفشتالي (عبد العزيز) : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا. تحقيق عن الكريم كريم الرباط 1972 ص 210.

(16) الافراني: المصدر السابق ص 160.

(17) طوريس: المصدر السابق ص 166.

(18) S.I. Angleterre t I, p. 90, 524, 526, et introduction, p VI.

(19) طوريس: المصدر السابق ص 166.

(20) S.I. France t, p. 303 et note 5, S.I. bas t I, p. 152 et passim.

(22) انظر عن القرنين مارمول: المصدر السابق جـ 2 ص 31ـ32.

(23) الفشتالي: المصدر السابق ص 210.

S.I. Ang. t 2, p. 234

(25) الفشتالي: المصدر السابق ص 42.

(26) مارمول: المصدر السابق جـ 2 ص 61.

(27) نفسه جـ 2 ص 28ـ32.

(28) الفشتالي : المصدر السابق ص 110.

(29) كريم (عبد الكريم) : المغرب في عهد الدولة السعدية الرباط 1977 ص 254.

(30) ابن تاويت ـ من زوايا التاريخ المغربي ـ في مجلة تطوان المغرب 1964 عدد 9 ص 138. وقد كتب لانكو مذكراته في خلال سنتي 1615ـ1616.

(31) انظر عنه التامنارتي (عبد الرحمن) : الفوائد الجمة في علوم الأمة ترجمه الى الفرنسية جوستينار. فرنسا 1953 ص 19.42 وغيرها.

(32) انظر عن الأوبئة والمجاعات والأزمات التي عرفها المغرب في عهد السعديين.

Rosemberger et Triki Hamid: Famines et epidemises au Maroc au 16 et 17e siècles, in--Hesp. Tamuda, Rabat, t. 14--1973.

(33) الفشتالي: المصدر السابق ص 209.

(34) مارمول: المصدر السابق جـ 2 ص 31.

(35) S.I. Ang. t. I (introduction p VI)

(36) مارمول نفسه جـ 2 ص 76.

(37) نفسه ص 27.

(38) Andrzej: l'Armée et la flotte de guerre marocaine, in Hesperis--Tamuda, Rabat 1972, t. 8, p. 71.

(39)، (40) مارمول: المصدر السابق جـ 2 ص 40.

(41) المجهول: المصدر السابق ص 51.

(42) نفسه ص 53.

(43) نفسه ص 58.

(44) الفشتالي: المصدر السابق ص 210.

(45) S.I. Esp. t I, p. 246, 249, 299.

(46) اندرزج : المرجع السابق ص 92.

(47) انظر عنه المصادر المذكورة في هامش رقم 1.

(48) سوزا: المرجع السابق ص 194 ـ 195.

(49) مجهول: المصدر السابق ص 53.

(50) اندرزج: المرجع السابق ص 93.

S.I. Ang. t. I, p. 15, note I, et introduction II
(52) loc, cit (introduction p. III).

(53) الفشتالي: المصدر السابق ص 204.

(54) مارمول: المصدر السابق جـ 3 ص 8.

(55--56) S.I. Ang. t. I, (introduction), p. 7--8.

(57) الافراني: المصدر السابق ص 95.

(58) مارمول: المصدر السابق جـ 3 ص 15.

(59) الفشتالي: المصدر السابق ص 209.

(60) ابن تاويت: المرجع السابق ص 141.

(61) الافراني: المرجع السابق ص 16.

(62) A. Berbrugger: Cannes à sucre -- in -- Rev. Africaine Alger 1862 p. 117.
وحسب هذا المؤلف كان السعديون مندفعين لتحرير آغادير بهدف ايجاد منفذ بحري لتجارتهم ، لا برغبة تحريره من النصارى.

(63) محمد خير فارس تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، دمشق 1982 ص 4.

(64) مارمول: المصدر السابق جـ 3 ص 7 وقد شارك مارمول في هذه الحملة باعتبار أنه كان أسيرا لدى محمد الشيخ.

(65) انظر عن تدخل السعديين في بلاد السودان: الفشتالي: المصدر السابق ص 75. وغيرها. والسعدي

(عبد الرحمن): تاريخ السودان تحقيق هوداس ط. باريس 1964.

(66) ابن القاضي (أحمد) المنتقى المنصور... (مخطوط) ص 28.

(67) مارمول : المصدر السابق جـ 2 ص 58.

(68) طوريس: المرجع السابق ص 166.

(69) Mercier (E.) : Histoire de l'Afrique Septentrionale, 3 vol. Paris, 1891, t. 3, p. 87 et passim.

(70) انظر عن العملة

J.D. Breths: Constribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques Casablanca.

(71) الافراني: المصدر السابق ص 95.

S.I. Ang. t. I, p. 466.

(73) المجهول: المصدر السابق ص 66.

(74) طوريس، مارمول، وليم لانكو، وآخرون والوثائق الأوروبية المعاصرة.

(75) كانت مرابحهم كبيرة في التجارة في الأسلحة، وفي سكر المغرب الرخيص قياسا لسعره في اسبانيا انظر طوريس المرجع السابق ص 166.

(76) S.I. Ang. t. I, p. 98.

(77) S.I. Esp. t. 3, p. 225 -- 228.

(78)، (79) بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي في مجلة تطوان أعداد 6.8.9.

(80) S.I. France, t. I, p. 180.

(81) الفشتالي: مناهل الصفا ص 260.

(82) انظر عن الدلائيين، وتجارتهم مع هولندة: محمد حجي: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الرباط 1964 ص 184_203.

(83) S.I. Ang. t. I, p. 466.

(84) انظر عن صادرات المغرب ووارداته من أوروبا:

S.I. ANG. t. I (introduction)

(85) مارتيني وآخرون: المرجع السابق ص 219 _ 221.

(86) نفسه ص 213.

(87) S.I. ANG. t. 2, p. 86. Ang.

(88) الافراني: المصدر السابق ص 95.

(89) السعدي (عبد الرحمن) المصدر السابق ص 178.

(90) Haédo, (F. Diègo de): Topographia historia: général de Argel trad. par Berbrugger et Monnereau -- in -- Rev. Africaine Alger, t. 85, p. 54--55.

(91) نفسه ص 54 وأنظر أيضا: العياشي (أبو سالم): ماء الموائد (رحلته) جـ 1 من الطبعة الحجرية ص 46 وغيرها.

(92) انظر عن هذه القافلة مقالة

Marcel, Emerit: Les Liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord, -- in -- Rev. de l'Inst. de Recherches Sahariennes, Alger 1954, t. Xûi, p. 41--42.

(93) مارمول: المصدر السابق جـ 2 ص 60.

(94) نفسه جـ 2 ص 33.

(95) نفسه جـ 3 ص 22.